الفصل الخامس

حكمـــــــــة المـــوت

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الخامس

حكمة الموت

تمهيد

هذا العالم الذي نعيش فيه، مخلوق من قبل قوة عاقلة قادرة فاعلة حولته من غير وسيط ولا آلة من العدم إلى الوجود.

وهذه الحياة رحلة قصيرة غير محمودة العواقب إلى خاتمة المطاف، وهي تشبه همزة الوصل، أو الجملة الاعتراضية التي تنتهي بنا إلى جملة طويلة أكثر بلاغة، وأحلى ألفاظاً، وقد اقتضت الحكمة الإلهية البالغة أن تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، ومعبراً إلى حياة أخرى، إما إلى جنة وإما إلى نار.

إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد

على حد قول المعري:

وهذه الدار الفانية مزيج من الألم واللذة، والحزن والفرح، والإثم والعدوان والبر والتقوى، ليكون لكل ذلك ما وراءه حيث يقر كل في نصابه، وإلا انعكست براهين الحكمة، وموازين العدل.

أولا: على سبيل التعميم:

أ- حكمة الأفعال الإلهية:

أفعال الله سبحانه معللة بالأغراض والغايات ومصالح الكون المترتبة عليها شاهدة على حكمته تعالى، ناطقة بتنزهه عن العبث والغفلة. وبوسعنا نحن أن نستشف الكثير من ذلك وراء التكاليف الإلهية من أوامر ونواه، بل وراء جميع أفعال الخلق والتكوين.

obeikandl.com

والقرآن الكريم نفسه أصدق شاهد: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ (١).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (٢).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ (٣).

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (٤).

وقديما قبل خلق آدم أبي البشر تساءلت الملائكة عن سر خلقه، والغاية التي تعود بالنفع من ورائه، مع أن المنتظر من الإنسان أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فأجابهم المولى سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي أن الأفعال الإلهية، مهما بدا لنا من غموض حكمها، والأسرار الكامنة وراءها، أو خيل إلينا أنها خواء من كل ذلك، فليس الأمر في الواقع على ما نخال أو نتخيل، وإنما هي ضحالة علم الإنسان، بل ومن هم أكبر من الإنسان، بجانب علم من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وإذا كان أنزال الموت، بالإنسان، ليس إلا فعلا من أفعاله تعالى، فلا يمكن أن يكون هو وحده من بينهما خلواً من الغاية والحكمة، وقد علمنا أن لا شيء من أفعاله على هذا النحو.

وإذن فعلينا أن نقر باللسان، ونصدق بالجنان، أن إنزال الموت بالإنسان له غايات عظيمة وحكم جليلة. وهذا ما سوف نحاول فيما يلي أن نسبر بعض أغواره، ونزيح بعض أستاره.

ب- عدالة إنزال الموت:

من منظور بشري أرضي قاصر، ربما يخيل للإنسان أن هذا الإنزال شر الشرور، وأمر بالغ القسوة لا يمكن أن يعتذر عنه، أو ظلم صراح، وأحياناً يتساءل: أما كان من الممكن خلق هذه الحياة مجردة من هذا الألم الذي ينغص صفوها كي يستطيع الإنسان أن يعيش

(١) سورة آل عمران الآية ١٩١.
(٢) سورة الحجر الآية ٥٨.
(٣) سورة الدخان الآية ٣٨.
(٤) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

بلا توتر أو قلق؟

ومما يروى عن أبي العلاء المعري الأديب المتفلسف – والعهدة على الرواة – انحراف تصوراته فيعد الموت ظلما من الباري، ويعاتب المولى عتاباً أحمق جاهلاً:

ونهيت عن قتل النفوس تعمد ... وبعثت أنت لقتلها ملكين
وزعمت أن لنا معادا ثانيا ... ما كان أغنانا عن الحالين[١]

هذا الإنسان في لحظات التساؤل المتسرعة: نسي أن الخلق كله قد قدر منذ الأزل تقديرا محكما حسب نواميس إلهية وقوانين ضابطة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٢]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٣].

أي قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسق مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير»[٤].

وإيمان البشر بصدق هذه القوانين – والموت ليس بدعا ولا شذوذاً- ينفي عن أنفسهم حالة الشك فيها.

على أن خلق الطبيعة بدون خصائصها الأساسية ولوازمها، ممتنع، فإن الطبيعة هي هي، ووجود الملزوم مرتبط بوجود لازمه، ولو خلقت الحياة على غير هذا النحو، لكانت حياة غير هذه الحياة[٥]. وهذا ما نعنيه بالعدالة الإلهية أي عدالة فعل الموت الملازم لوجود الإنسان الناقص.

وأول سمة من سمات هذه العدالة، أن الفعل صادر من الله، فلا يتطرق إليه شك، وأنه يعم الجميع، وهم أمامه سواء، وهذا أمر قد فرغنا منه في بحث حتمية وما إلى هذه الحتمية.

---

(١) معجم الأدباء جـ٣ / ١٧٤.
(٢) سورة القمر الآية ٤٩.
(٣) سورة القمر الآية ٤٩.
(٤) في ظلال القرآن جـ١٩ / ١٣٨.
(٥) الزيني : ابن القيم وآراؤه الكلامية ص٢١٥.

obeikandl.com

ثانيا: على سبيل التخصيص:

أ- بعض الحكم الملتمسة لحادث الموت:

١- جهلنا بوقوعه:

على الرغم من قساوة الموت، وما يترتب عليه من نتائج مؤلمة ومحزنة، فقد كان من الممكن أن يكون أشد قساوة وفظاعة، لو كشف لكل واحد يوم أو مكان وقوعه أو الحادث الذي قد يظن عابرا والموت كامن فيه. لو تصورنا أن هذا ممكن لتوقفت حركة الإنسان في هذا الكون، وظل هلوعا ينتظر يوم الموت، يعد الأيام واحدا بعد الآخر، دون أن ينتج أو يبدع أو يخترع. وترتب على ذلك توقف حركة الحياة وظلت في بداياتها الأولى تعيش في عصور ما قبل التاريخ لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام. ولم يكن هنا وهناك ما نشاهده الآن من تقدم ورقي وازدهار وعمران ودول وحضارات.

فكل منا يعتقد اعتقادا جازما أنه سيموت، لكن ذلك لن يكون «الآن». ربما غدا أو ما بعد الغد وبين الغد وما بعده، تتقدم خطوات الإنسان في هذه الحياة، يبدعها، ويملأها حركة، ويطورها، ويبني الحضارات.

ومن ألطاف الرب تعالى، أن استأثر بهذا كله، فيما استأثر من علوم غيبية، وتركنا ننعم بأوهامنا، ونظن أن الحبل ما زال على الغارب، وهو قد أحاط بالعنق، وأوشك أن يأخذ بالمخانق: ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[1].

وفي هذا يقول أبو حيان التوحيدي: « ألا ترى أن علمنا لو أحاط بموتنا متى يكون؟ وفي أي وقت يقع، ومتى نغادر هذه الحياة، وعلى أي حال تحدث العلة أو المحنة النازلة بالبشر والبلاء الذي يحل بالنفوس، لكان ذلك مفسدة ليومنا، وأزمة لنفوسنا، ومحنة شديدة علينا، وألما مستمرا نكابده في نومنا ويقظتنا، ونهارنا وليلنا.

(١) سورة لقمان الآية ٣٤.

فانظر كيف زوى الله الحكيم هذا العلم عنا، وجعل الخيرة فيه لنا »[١]. وهذه نعمة كبرى كثيرا ما نذهل عنها، ولا نتوقف عندها نتدبر ما تنطوي عليه من رفق وحدب ثم نشكره سبحانه.

٢- استمرارية الحياة:

الحياة كما نراها سلسلة متصلة، ليس بوسعنا إدراك نهايتها: حركة مستمرة من النماء والذبول والتجدد والأفول، هذه الزهرة تذوي ثم تموت لكي ينمو برعم صغير يطل من ثنايا الأرض، ويرفع رأسه ليستقبل شمس الصباح، وهذا حيوان كاد أن ينفق، فيأوي إلى ركن بعيد كأنما يريد أن يلاقي الموت على انفراد بعد أن ترك ذرية تحمل نفس خصائصه، وبهذه الذرية تستمر السلالات والأجناس.

وما ينطبق على عالم النبات والحيوان الأدنى، ينطبق على الحيوان الأعلى وعلى الإنسان؛ فهذا شيخ يرقد على الفراش يحتضر، وحوله أبناء وأحفاد أي أن الحياة لا تتوقف، فضلاً عن أن تنتهي فيما يبدو لنا.

إنها أبداً يانعة في الجملة، كأنما من هذه الأجساد التي تثوى في أعماق الأرض، والأشلاء التي تختلط بتربتها، تستمد الأرض جودتها وخصوبتها لتغذي شجرة الحياة التي تورق وتزهر وتثمر وتنتج ثمارها، أو قل يتجدد عنفوان شبابها، ويستمر دولاب دورتها في حركة دائبة إلى أن يشاء الله أمرا كان مفعولا، لكأن كل ما في الحياة، وقود للهبها المقدس، كي تظل الشعلة مضيئة وهاجة. فنحن نموت لكي يحيا آخرون،والآخرون يموتون لكي يحيا من بعدهم، وهكذا دواليك ولو فرضنا أننا مخلدون في هذه الحياة وأن الجيل الأول الذي صحب آدم مازال يعيش وكذلك الأجيال بيننا فأين هي الأرض التي تسع تلك البلايين التي تبدو بلا نهاية؟

من أين يأكلون؟ وكيف تتقدم الدول وتزدهر الحياة؟ إن البشر – في هذه الحالة – سوف يحاولون أن يخترعوا فعلاً مدمرا، يقوم مقام الموت كي يفنى البشر، ولا

(١) الإمتاع والمؤانسة جـ١ / ٢٢٤.

أظن أنهم قادرون!، ولقد صدق فيلسوف المعرة إذ يقول:

لعل الموت خير للبرايا وإن خافوا الردى وتهيبوه

إن شيئا من الأمن تحت راية الموت هو الذي أتاح للبشرية مهلة من الوقت تسع لأعمال الفكر والتوصل إلى مبتكرات العصر.

يقول ديورانت: «ما لاحيلة إذا كان لا بد لنا من الموت من أجل الحياة؟ نحن أعضاء مؤقتون في جسم الجنس، وخلايا في بدن الحياة.

إننا نموت ونختفي لعل الحياة تظل في شبابها وقوتها، ولو أنا عشنا إلى ما شاء الله، لخمد النماء، ولم يجد الشاب له مكاناً على ظهر الأرض »[١].

وتقول مي زيادة (ت١٩٤١ م) « ما الأرض والبحار وأبعاد الأفلاك، سوى مدافن دهرية إنما هي في الوقت معامل توليد وتكوين نحن نخلد الحياة بفنائنا، وهي تفنينا بخلودها »[٢].

ويقول كامل الشناوي: « موت الأحياء تجديد للحياة يخلى مقاعد العجزة والمرضى والضعفاء لأحياء جدد قادرين، أصحاء أقوياء، ولو لم يكن الموت لتجمدت الدنيا على حالة واحدة، أو ضاقت بمن فيها بحيث لا يستطيع أحد أن يتحرك من مكانه »[٣].

إن الموت هو الطاقة الحقيقة التي تتزود منها الحياة، فتجدد شبابها وتواصل رحلتها للغاية المرسومة لها. نعم « في قلب الموت تتجدد الحياة نفسها »[٤].

٣- السأم من طول الحياة:

هذا الإنسان الكائن الحي الراقي، يتميز عن باقي الحيوانات بكثير من الصفات عدد الخالق الحكيم كثيرا منها في كتابه الكريم؛ فهو كفور وعجول، وجهول، وهلوع، وهو أيضا ملول.

(١) مباهج الفلسفة جـ٢ / ٣٠٥.
(٢) ظلمات وأشعة ص٧٤.
(٣) بين الحياة والموت ص٣٧، ٥٤.
(٤) مباهج الفلسفة جـ٢ / ٣٠٥.

والملل حالة نفسية تعتري الإنسان نتيجة لرتابة الحياة وسيرها على منوال واحد، ونمط لا يتغير حتى لتتشابه أيامها ولياليها، وأحداثها، وتبدو مثل أوراق التوت، أو أمواج المحيطات، أو كحبات البازلاء المتشابهات.

هذه الحالة النفسية التي تعتري الإنسان، قد تصبح ملازمة له إذا امتد به العمر، وتغير الحال والأهل والخلان، ومضى من مضى، وبقى هو وحيدا أو شبه وحيد بلا عمل ولا دور، ولا نهي ولا أمر، يردد بينه وبين نفسه:

إذا ما مضى القرن الذي كنت فيهمو وخلفت في قرن فأنت غريب [١] وعندئذ لا يكون العيش منغصا فحسب، بل تصير الحياة نفسها عبئا ثقيلاً، وصدق الشاعر العربي القديم إذ يقول:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا – لا أبالك – يسأم [٢].

ومن يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيدا؟ [٣]

ويقول قطرى بن الفجاءة:

ومن لا يعتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى انقطاع [٤]

بل ربما أصبح هذا الشيخ المتهدم عبئا على أقرب الناس إليه فيبلغ به السأم منتهاه ويتمنى الشفاء من الحياة كأنها داء عضال أعيا على الطب والأطباء يقول الشاعر في هذا المعنى:

وكل الفكاهات ممولة وطول التعاشر فيه القلى
وكل طريف له لذة وكل تليد سريع البلى
ولا شيء إلا له آفة ولا شيء إلا له منتهى [٥]

(١) ديوان أبي العتاهية ص٣٤.
(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٣٠، والمعمرين من العرب ص٦٦.
(٣) المعمرين من العرب ص٦١ وأيضا طه حسين: حديث الأربعاء جـ١/ ٤٨ وأيضا الأغاني جـ١٨ / ١٤٤.
(٤) ترجمته في تاريخ الأدب العربي ص٢٣٣ لبروكلمان.
(٥) ديوان أبي العتاهية ص٢٠.

وفي خضم بحر الملل، يصبح مطلب الموت مطلباً ملحاً، وهو الحل الأمثل لمشكلة الإنسان لكنه هنا قد يكون له بواعث أخرى للذين يبحثون عن دروبه: «قالت امرأة من المتعبدات: والله لقد سئمت من الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى وحباً للقائه»[١].

فالملل ليس وقفا على مرحلة الشيخوخة،بل قد يتسلل إلى نفوس الكثيرين من شباب ورجال في أوج القوة، وليس للحياة معه معنى ولا طعم، بل تفقد كل بهجتها ورونقها، وربما دفع إلى الانتحار تخلصا من عيش لا يطاق.

وفي هذه الحالة، إذا جاء الموت في موعده ليضع نهاية لحياة التكرار والملل، والضيق والضجر، يكون نعمة أي نعمة، وبلسما لكل داء.

على أني أحس أن مأساة الشيخوخة جديرة هنا بلفتة خاصة:

أ- مأساة الشيخوخة:[٢]

أعنى بمأساة الشيخوخة، حالة التغير الشامل من الناحيتين الجسمية والنفسية التي تعتري الإنسان حين يبلغ من الكبر عتيا، فتباعد بين ماضيه وحاضره، وتحوله إلى كائن حي غريب، فقد القوة الجسمية، والقدرة العقلية والتكيف النفسي، والتآلف الاجتماعي. أي أن مجموعة التغيرات تكون – على شمولها – كبيرة ورهيبة: فالعود الصلب القوي، قد ضوى وتضعضع، والوجه المشع برونق الصبا والحيوية، جف ماؤه، وزحفت عليه التجاعيد، وانطفأ بريق العينين فيه، والقلب الضاحك ملأته أحزان الدنيا – حتى ليكاد المرء يتساءل من أنا؟ لولا أن نفسه التي بين جنبيه تؤكد أنه هو هو، رغم كل شيء. فيردد بصوت هامس مشروخ، وعبرات منسكبة مع أحمد بن أبي بكر الكاتب:

من كان يرجو أن يعيش فإنني ... أصبحت أرجو أن أموت فاعتنقا
في الموت ألف فضيلة لو أنها ... عرفت لكان سبيله أن يعشقاً[٣]

(١) الإحياء جـ٤ / ٣٦٠.
(٢) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص٢٩٨.
(٣) راجع كتاب المعمرين من العرب ، حيث يصور مأساة الشيخوخة بأقلام أصحاب التجربة والكتاب كأنه نعى لحياة هؤلاء الناس والتعلق بالأمل المستمر توقا إلى الموت الذي لا يأتي.

ومن خلال تصوير الرب سبحانه لأطوار التغير الإنساني نستشف مدى المأساة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١].

- ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[٢].

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[٣].

فمرحلة الشيخوخة المتأخرة – ببصمات الزمن الظاهرة والخفية – مأساة أي مأساة: « من يرد إلى أرذل العمر، فهو صفحة مفتوحة للتدبر ماتزال فبعد العلم، وبعد الرشد، وبعد الوعي، وبعد الاكتمال، إذ هو يرتد طفلاً، طفلاً في عواطفه وانفعالاته، طفلاً في حافظته فلا تمسك شيئا، وفي ذاكرته فلا تستحضر شيئا، طفلاً في أخذه الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط، ولا تؤدي في حسه ووعيه إلى نتيجة، لأنه ينسى أولها قبل أن يأتي على آخرها»[٤].

وقد تنتهي هذه الحالة إلى شرود ذهني بالغ، وفقد ذاكرة تام، أو ذهول متصل، أما الحطام الباقي من الجسم، فكومة مهملة لا تكاد يلتف إليها إلا من باب العطف، أو خوف الملامة.

---

(١) سورة غافر الآية ٦٧.

(٢) سورة النحل الآية ٧٠.

(٣) سورة الحج الآية ٥.

(٤) في ظلال القرآن جـ١٧ / ٥٨٢ (تفسير سورة الحج).

والشعراء لم تغب عنهم هذه الظاهرة المأساوية، فهي تجربة حية لا تخطئها عين فكيف بحس شاعر مرهف:

يقول زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب مته ومن تخطئ يعمر فيهرم (١)

ويقول قطرى بن الفجاءة:

وما للمرء خير في حياة ذا ما عد من سقط المتاع (٢)

ويقول أبو العتاهية:

المـرء يأمـل أن يعيـش وطـول عمـر قـد يضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلـــو العيش مره
وتخونـه الأيـام حتـى لا يـرى شـيئاً يسره (٣)

وفي مجال الفلسفة يلحظ أن موقف سقراط الشجاع من الموت ربما يرجع إلى بلوغه السبعين من عمره حينما صدر عليه الحكم بالموت. وهو نفسه يفسر ذلك في محاورة اقريطون فيقول: «إن الإنسان إذا ما وصل إلى مثل سنى فإن عليه ألا يجزع من اقتراب الموت»(٤).

ويوضح أكزينفون موقف أستاذه فيقول: «إن الموت سيسمح له (أي لسقراط) بتجنب ضروب العجز والبؤس المرتبطة بالشيخوخة لقد وصل إلى نتيجة هي أن الموت بالنسبة له أمر مرغوب فيه أكثر من الحياة.ومن الخير أن نتذكر في هذا الصدد أن الخوف من الشيخوخة البائسة كان يقلق الكثير من الإغريق»(٥).

ويصف أحد الفلاسفة (وهو هولوباردى) أبعاد المأساة فيقول: « أما الشيخوخة،

(١) ديوان زهير ص٣٠ ، خبط عشواء : أي تخبط خبط العشواء وهي الناقة لا تبصر ما أمامها ليلا.
(٢) نفس هذه الفكرة رددها أكثر من شاعر.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص٢٠٩ وتجدها عند دريد بن الصمة الجشمي (المعمرين من العرب ص٢١).
(٤) محاورة أقريطون : ص٨٤ (من محاورات أفلاطون).
(٥) جاك شورون : الموت في الفكر الغربي ص٥٠.

فهي الشر الكبير، لأنها تحرم الناس جميع المسرات، وتتركهم مع هذا يشتهونها ويقطعون الأنفس عليها حسرات، ولا يظفرون بغير المتاعب والأوجاع»[١].

ماذا يبقى بعد ذلك إلا انتظار الموت.

لا أحد يستطيع أن يمد يد العون فيما لا تبلغه طاقة. الجميع في حالة ترقب وانتظار متى يجئ الموت لكي يضع حدا لمأساة الشيخوخة، وعندما يتاح يكون أفضل الحلول الممنوحة من القدرة الإلهية، لتصان كرامة الإنسان الذي كرمه الله في بدء الخليقة على سائر مخلوقاته.

ب- أمراض الجسم والنفس:

لا يقصد بهذا العنوان الفرعي إلا إبراز حالة أخرى من حالات السأم والضيق بالعيش وممارسة الحياة.

فهذا إنسان، ألم به مرض خبيث أو آفة خطيرة، أطاحت بعض من أعضاء جسمه، أو حادث مؤسف أدى إلى بتر عضو أو آخر أو ما شاكل ذلك. ترى كم يعاني مثل هذا البائس من آلام نفسية وجسمية قد تستمر سنوات و سنوات لا سيما إذا تفاقمت به الحال حتى أصبح معدوداً من سقط المتاع: أليس هو إذن مصدر معاناة دائمة لا لنفسه فحسب، بل للجميع أيضا: آهة طويلة لا تنقطع، وأنَّة حزينة يتردد صداها داخل داره، ودمعة حارة أثر دمعة تنسكب آناء الليل وأطراف النهار؟

ولا تنسى أن الآلام النفسية، وإن كانت تسير هي والآلام الجسمية تختص بعضو من أعضاء الجسم، فإن الآلام النفسية تعم الجسم والروح وتغطيها بغطاء كثيف شامل لا يدع فراغا أو متنفسا.

إن الموت في هذه الحالة هو المخلص الوحيد، والملاذ الذي نبحث عنه بكل إصرار

---

(١) العقاد : بين الكتب والناس ص٣٢٣ ، والمفكر هو لباردئ ، ثالث ثلاثة من قادة الفكر الذين اشتهروا بالنقمة والتشاؤم في الآداب الأوروبية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهو إيطالي جمع بين الفلسفة والشعر.

وعناد، ولولا مخافة الله لاشتراه كل ذي فطرة نقية وقلب سليم بأفدح الأثمان.

وقد كانت مرت بالسيدة مريم العذراء « أم المسيح » أزمة نفسية من تلك الأزمات حينما حملت به من غير أب معلوم حسب المشيئة الإلهية – فماذا كان موقفها؟ أو حالتها النفسية؟ إن قولها هو الذي يكشف عن أعماق نفسها: « قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً »[١]. فهذا التمني للموت ليس بالأمر المستغرب إذ ذاك، بل هو حل أمثل – لو أتيح أو أبيح – للمعاناة النفسية التي تعانيها إنسانة قديسة طاهرة، كريمة المحتد، لها قلب ملاك وعصمة نبي، وصفاء رسول.

ويبرز الشاعر العربي ميزة الموت في تحرير الجسم والنفس من ريقة المرض وتطهيرها من آلامها، وعتقها من المعاناة المستمرة، وتقريبها من الحياة الباقية:

جزا الله عنا الموت خيرا فإنه ... أبر بنا من كل بر وأرأف
يعجل تخليص النفوس من الأذى ... ويدني من الدار التي هي أشرف[٢]

ويقول فيلسوف المعرة:

– ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد.

إن الحياة المقترنة بالآفات العظيمة، والمحن الهائلة، والآلام الشديدة، مثل أن يسبى الرجل وأهله وولده، ويملكهم قوم أشرار، حتى يرى في أهله وولده مالا طاقة به، فهذا كله مكروه وليس أحد يختار العيش فيه ولا يؤثر الحياة معه »[٣]. لذلك يستحب الموت بميل الفطرة، ونظرة العقل لا بأمر الشرع، ويسترسل إليه استرسال المستروح.

أما الدين، فصدق الرسول ﷺ:

« لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وأمتني ما كانت الوفاة خيراً لي »[٤].

---

(١) سورة مريم الآية ٢٣.
(٢) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص٢٩٧.
(٣) أبو حيان ومسكويه : الهوامل والشوامل ص٧٣.
(٤) رياض الصالحين ص٣٢.

٣- الاستشهاد في سبيل المبادئ والعقائد:

في كل مجتمع من المجتمعات البشرية، توجد مجموعة من الآراء والمعتقدات، والعادات والتقاليد وألوان من الثقافات المتعددة. وهذا ما يميز في الجانب العقلي كل مجتمع عن المجتمع الآخر، وعادة ما يتمسك بعاداته وثقافته كل التمسك ويدافع عنها بحرارة وصدق.

وتسود المجتمعات الإسلامية، على وجه أخص، مجموعة القيم الدينية، والمبادئ الأخلاقية المستمدة من القرآن الكريم والسنة، والتي تواجه بالثقافات المادية والإلحادية، وقد قام على نشر الثقافة الإسلامية، في صدرها الأول، ودافع عنها، ومات في سبيلها رجال أشداء، خلفهم رجال أشداء، وهي ما تزال في حاجة ماسة إلى من يخلفهم جميعا ليحمل بدوره العبء الذي طالما حملوه، إلى أن يضعه على أكتاف جيل آخر، وهكذا دواليك وهنا تبدو حكمة من حكم الموت كأجلى ما تكون. فصحابة الرسول ﷺ والتابعون لهم بإحسان، لم يكن لهم مناص من الاستشهاد في سبيل تلك القيم العالية.

وعلى مر التاريخ كان الكثيرون من الأفراد والقادة يدفعون حياتهم في سبيل الدفاع عن أفكارهم، ومعتقداتهم ثمناً بخساً لأثمن وأغلى ما يمكن اقتناؤه.

يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[١].

فهذا هو الاختبار الإلهي للبشر لإظهار من منهم سوف يجعل هذه المبادئ أغلى من روحه التي بين جنبيه، ليتسنى إرساء أسس المجتمع الصالح ورفع بنائه الذي لا يأتي من فراغ، وأولئك هم الرجال الذين سارعوا إلى الاستجابة، وورثوا الأجيال بعدهم تبعة أي تبعة. وفي غير بيئة الإسلام – قديما وحديثا – ما لا يبعد كثيرا عن هذا الاتجاه.

وإليك بعض الأمثلة: يقول امرؤ القيس لصاحبه (عمرو بن قميئة [٢]) الذي تبين

(١) سورة الملك الآية ٢.
(٢) ديوان امرئ القيس ص٩٥ ، وأيضا الأغاني جـ١٨ / ١٤٤.

بعد ما كان يجهل أن الرحلة إلى قيصر الرومان، التماسا للعون منه والمدد: لا تبك ولا تحزن، لأن علينا واجبا مقدسا هو استرداد ملك الآباء، والانتقام من أولئك الذين ثلو عروشهم، وإلا – يا صاحبي – فالموت أهون من الضيم.

جزا الله عنا الموت خيرا فإنه ... أبر بنا من كل بر وأرأف
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا[1]

والفيلسوف اليوناني سقراط. الذي افتدى بحياته مبادئه وأفكاره التي اعتنقها ورفض الوقوع في شرك الإغراء بالهرب من السجن الذي دبره له تلاميذه، مؤثرا امتثال قوانين البلاد، واحترام أوامر المحكمة، حتى النهاية الفاجعة احتسائه بيده كأس سم «الشوكران» السام.

قد يمكن أن تسمى هذه شجاعة أدبية، ولكنها خطأ لا شك فيه، لأن من أكبر الجنايات التي لا تغتفر على الحياة العقلية بعامة، أن يضحى بعقلية ضخمة – كعقلية سقراط – على مذبح الجهل والتجني، وثم طريق للنجاة مهما تكن ملتوية، ومدبرة في الظلام فإن هذا الظلام إذن لهو أجمل من نور الصباح الذي يبهر الأبصار.

ونعماً ما فعل أرسطو – عقل الأكاديمية – إذ قال: لن أسمح للأثينيين أن يخطئوا في حق الفلسفة مرتين[2]. ثم هرب من أثينا لئلا يلقى مصير سقراط.

وهذا بعينه هو ما فعله أفذاذ المصلحين وقادة الفكر والرأي في العالم كله بعد ذلك، وفي العالم الإسلامي أيضا: لا يدفع المصلح حياته إلا حيث لا يجد مفرا، لكنه يضحي بها راضيا، وهذا ما نجده عند من أسلموا النفس اضطرارا على أيدي الطواغيت، ومن هؤلاء الرجال الأخيار:

الجعد بن درهم (ت ١١٦ هـ) الحلاج (ت ٣٠٩هـ)، وشهاب الدين

(١)ترجمته في الأغاني جـ١٨ / ١٣٩-١٤٤ ، وبروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ١ / ١١٧.
(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص١١٣.

السهروردي(ت٥٨٧ هـ) وحسن البنا(ت ١٩٤٩ م) وسيد قطب (ت ١٩٦٦م).

٥- إذلال المتكبرين والطغاة:

نفوس البشر مختلفة، وأفعالهم في الحياة متفاوتة، فمن ملتزم الصراط المستقيم، يعيش معتزا بالمبادئ الخلقية متعلقا بأهداب الدين، يعرف ماله، وما عليه، لا يحيف ولا يجور، ومن منحرف عن الطريق السوي، يأتي المنكرات ويذل الكبير، ويهين الصغير، حتى تبلغ به الجرأة أن ينصب نفسه الفانية إلهاً في الأرض من دون الله، كأنما ينطق بلسان فرعون:

«أنا ربكم الأعلى».

في هذا الموقف، كم يتمنى ملايين البشر الموت الزؤام لهذا الظالم؟ وكم يدعوا المظلومون عليه وتتصاعد أناتهم في جوف الليل، مع نشيج بكائهم تطلب من الخالق الجبار الانتقام والتنكيل بهؤلاء الأقزام، بعد أن نسوا حقيقة أنفسهم، وإفساح المولى لهم، إنه الإمهال لا الإهمال: ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾[1].

إذلالاً لهؤلاء المتجبرين الطغاة يأتي الموت حتف الأنف، فيمرغ في التراب أنوفهم، ويدس تحت الأقدام أجسادهم، كأي بائس مغلوب على أمره لا حول له ولا طول. هذا قبر مهما ازدان، وذاك قبر مهما استكان، في الموت يتساوى الجميع، الملك والرعية، والأمير والحقير، والغني والفقير. وصدق أبو العلاء المعري وهو يشير إلى التراب الذي عاد إلى أصله:

خفف الوطء ما أظن أديم ... الأرض من هذه الأجساد
رب لحد قد صار لحدا مرارا ... ضاحك من تزاحم الأضداد

ثم يقول آخر:

لو عرف الإنسان مقداره ... لم يفخر المولى على عبده
والواحد المفرد في حتفه ... كالحاشد المكثر من حشده

وصدق أبو العتاهية فيما هو دون ذلك:

(١) سورة الحجر الآية ٣.

ولقد مررت على القبور فما ميزت بين العبد والمولى[١]

ألا نتبين هنا حكمة بالغة من حكم الموت: «سبحان من كتب الموت على عباده فأذلهم به هدما، وكسراً، ثم بث بذور النطف في أراضي الأرحام وأنشأ منها خلقا وجعله لكسر الموت جبراً، وتنبيهاً على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعاً وضراً»[٢].

وهكذا فالموت إذا وقع خبط عشواء، يصيب ويخطئ بالصدفة العمياء. إنه ضرورة ليس عنها من غنى، لاستمرار الحياة، ولإنقاذ الإنسان من السأم والملل.

ولوضع حد للأمراض الخبيثة التي تفتك بالأبدان، وتحطم النفوس، ولتتويج المجاهدين الأبطال الذين سارعوا إلى جنة عرضها السماوات والأرض بتيجان الشهداء الأبرار، ولإذلال الآلهة الصغار الذين أفسدوا كل شيء.

هذا قل من كثر، وجهد المقل، بل قطرة من بحر، لكشف الحكم الإلهية الكامنة وراء هذا الحدث المهول: الموت.

***

(١) ديوان أبي العتاهية ص٢٢.
(٢) الإحياء جـ١ / ٢١.

openkandl.com